صورة رمزية

رسالة إلى امرأة!

للأستاذ غائب طعمه فرمان

« الصراع بين الواقع والخيال صراع خالد .. فكثيرا ما يهرب المرء من واقعه المرير مع أحلامه إلى عالم الخيال الرحيب .. ولكن .. لا يستقر فيه قليلا [illegible] إلى أحضان واقعه ليراه أشد مرارة من قبل ! ... »

ها أنذا جالسا لوحدي والدجى يرسم أمام ناظري عالما رهيباً ..

ها أنذا صامتا كأنني أنتظر ساعة مفزعة ، أو أرتقب حكما قاسيا ، والكون من حولي أخرس سكران بخمرة السكينة ، والهواء البارد يلفح وجهي ، ويبث القشعريرة في كياني ، فأحس من أعماق نفسي بهمسة حائرة مضطربة ، وتضطرب في نفسي لواعج وأشجان ، وتختلج في رأسي أفكار وصور قاتمة !

ها أنذا جالسا على صخرة تعرفني ، حبيبة إلي ، عزيزة على نفسي .. وقد صرخت من أعماق روحي قوة تدفعني إلى أن أقبلها وأبلل جسمها البارد بدموعي ، وأركع تحت قدميها أستجدي الذكريات !

والنهر أمامي يتهادى بسكون كأنه في موكب عزاء ، وعلى سطحه الأملس مرتجف كأنه مآل اليائس ، وقد شعرت برهبة وخشية ، فكأنني واقف على شاطئ مسحور . مجهول .. مبهم .. تلفه الأسرار ، وتوغل في أرجائه أصداء مبهمة كأنها أرواح ضائعة تنشد أجسادها بين الرمم ، أو كأنها أسئلة ليس لها ردودا

وعلى يساري تلك الشجرة الأمينة كقلب أبيض ، تصلي معي بخشوع وضراعة في محراب الوحدة القدس ، وقد سجدت أغصانها على النهر تقبله ، وقد داعبتها نسمة حنون ، فراحت تميل بطراوة !

كل ما حولي عميق لأنه يطوي تاريخ قلبين فرقهما الدهر ، فتاها في متاهات الحياة حائرين يبحثان عن مأمن رحيم ... كل ما حولي حزين كأنه يبكي على مأساتنا ، ويندب حظنا العاثر ، ويبعث إلى قلبين ضالين سلوة وعزاء ، وكل شيء يمر على ذاكرتي واضح المعالم ، مؤثرا ، مرهقا ، عميقا ، ويتجسم في هذا الفضاء اللانهائي لي شبح الماضي الجميل الكئيب ! ، وتبرز لي ذكريات الأيام الماضية ، تلك التي طعرها القلب ، وأخرجها الاحساس المتوثب ، وصرخ بها الضمير المنصوب !

يالها من ذكرى .. تلك التي انطوت على شواظ من نار ،

أو شيء أو عمل (١) .

ولولا الفردية لما كان هناك تقدم ولا مدنية . فلو أن الناس كانوا يفكرون تفكيرا متشابها ، ويسلكون سلوكا متشابها ويعتقدون في أشياء خاصة ولهم أغراض وغايات واحدة ، دون أن يتساءلوا عن صحتها أو يجتهدوا في تغييرها ، لما كان هناك أمل في التطور والرقي . والفردية هي التي تدفع إلى التجربة والمخاطرة ، والاختراع والابتكار . ولعل خير مقياس لرقي المجتمع هو مدى ما يعطيه للافراد من فرص لظهور فرديتهم المختلفة . وكثيرا ما يحدث صراع بين التقاليد والفردية فتحدث اضطرابات نفسية خطيرة (٢) ، وذلك حين تقف التقاليد حائلا دون ظهور الفردية .

على أن للفردية بجانب هذه المنافع — أضرارا ، فقد كان لانتشار فكرة الفردية — وخاصة في أوائل القرن الماضي — أثر في تفكك أوامر الأسرة التي تسودها سيادة الأب — وجمية (مودة قديمة) وأن من الممكن أن ينكث الزوجان أو أحدهما العهود المقطوعة حيال الزواج .

ثم إن التمادي في الفردية يجعل الفرد ينظر إلى الأمور بالنسبة إلى آرائه وملذاته — مما يؤدي إلى الاستخفاف بنظام الأسرة . وهذه الروح المستهترة كان لها أثرها في زعزعة النظم الاجتماعية وعدم استقرارها .

محمد محمد علي

---

(١) في موضوع الطوطمية والتابو — راجع كتاب سيجموند فرويد المشهور .

(٢) مذكرات الدكتور حسن الساعاتي في علم الاجتماع لطلبة قسم الجغرافيا بجامعة فؤاد ٤٧ — ١٩٤٨

ولفت ريقا من الممر كان القلب ، والعاطفة ، والضمير قضاته العادلون !

إنني لأذكره .. وأنا وحدى أحييه ، وأبعثه من أعماق قلبى على القرطاس ، وأحاول أن أبث فيه من حياتى . روحاً ، ومن جوانحى قبساً ، ومن اضطراب فكرى حركة !

وأنت أيتها المرأة التى أحاطك — أعتقك جالسة وحدك على الشاطىء .. شاط . العالم الأرجوا ، كأنك تنتظرين عودما يؤوب إلى وطنه ، أو أملا يولد مع موج الأحلام المسحور ! ... أعتقك غارقة فى الظلمة كأنك تناجين الأطياف ، وأعتقك ساهمة كأنك تصلين ، وأعتقك غارقة فى لجج الصمت الذاهل !

أتذكرين ذلك اليوم الكئيب الجميل ، القاتم المنير ، الباكى المبتسم ؟! .. عندما تقدمت اليك مدفوعا برهبة وخشوع عظيمين ، مدفوعا برغبة وشوق آمرين ، كأننى مدفوع إلى عالم المستقبل المكنون !!

جئت إليك ، وقد نفضت يدى من العالم ، ومن كل رغبة من رغبات الحياة ، ومن كل خفقة من خفقات الأمل ، ومن كل شوق من أشواق النفس فى الخوض فى غمار الحياة !

وكنا قد تواعدنا على قدر ، واتفقنا على موعد ! وقد هربت من جحيم حياتى ، وإسار رقبتى .. إليك .. وأنت تعرفين أن الماضى الذى أتكلم عنه شىء قاس مؤلم .

تقدمت اليك بقلب واجف .. كأننى فى حضرة من ملك حياتى ، فرأيتك جالسة غريقة فى بحر لجى من الهواجس والظنون ويدك ممتدة إلى الظلمة ، أو إلى شعرك الفاحم !

وخيل إلى أننى أمام امرأة ساحرة تلفها الأسرار ، كأننى لم أعرفك ، ولم تتواشج الأواصر الروحية بينى وبينك .. وسمعتك تتمتمين كأنك تقرئين تعويذة لطرد الأشباح المحيطة بك كأنها الاقدار .. وسمعتك أخيرا تقولين :

— أهذا أنت ؟!

فأجبتك : نعم .. أنا الوحيد الذى قطع كل صلة له بالعالم!

فنظرت إلى كأنك تنظرين إلى شىء غريب .. بليد .. مبهم لا يعرف أمرا من أمور الحياة وقلت :

— هل ارتكبت الحماقة؟! .. هل اشترتك مملكة الشيطان !؟

— نعم ! .. لقد فعلتها وأنا لست بنادم ولا خزيان .. نعم لقد فعلتها بكل إرادتى .. فانى لا أحبها ، ولا أشعر بميل نحوها بل أنا أمقتها كما أمقت الشيطان!

وساد الصمت ، وكلانا لا يعرف ما يقول .. كأن السكينة ألقت أسارها علينا .. ومشينا على الشاطىء .. ونحن مطرقان .. قلت:

— ولكنها زوجتك .. أم أولادك .. إن ضميرى ليعذبنى !!

— وليكن .. فأنا لا أقبل منطق الحياة الأعوج ، فأنا أكره زوجتى أشد الكره

— ليتنى ما عرفتك !!

— أتريدين الحق ؟! إننى يئست من حياتى لولاك .. ومن يدرى ! . لولاك لفارقت الحياة منذ زمن بعيد !

يالك من امرأة غريبة كالحياة ، غامضة كالموت . إننى لم أشعر بالاهانة والضعة مثل شعورى بهما فى تلك اللحظة .. لقد حطمتنى الجريمة وحدى ، وهربت أنت لائذة بالعفة والطهارة .. وليس هناك جريمة فى الوجود يشترك فيها شخص واحد .. حتى السارق فى جنح الظلام يشترك معه المجتمع فى سرقته !

قلت لك : — لا تثيرى الماضى .. فالذى تلفه الأكفان لا تستقر فيه الحياة مرة أخرى . إننى ضحيت بكل شىء من أجلك .. أنت يا سورة أحلامى ولحن هواى . ضحيت بامرأتى وهى مخلوقة بائسة ضعيفة .. وضحيت بأولادى وهم محتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ... وضحيت بكل شىء لأجلك .. فقد ضقت ذرعاً بحياتى الرتيبة ، وبدنياى الكئيبة الأوحال .. لقد ضقت ذرعاً بهذا الواقع المليء بالتناقضات .. هذا العمر الذى يذبل بذلة .. واشتقت إلى عالم ثان أكثر بهجة وأنضر وجها .. وأنت جناحى الذى أحلق به فى الأجواء السامقة وأرتفع به عما ينخر فى جسمى ويستبد فى فؤادى .. فتعالى معى ولا تثيرى شجنى لتتساقى هذا التل لعله يقضى بنا إلى العالم الجديد !

وعندما تسلقنا المرتفع لنبلغ المدينة كنت تستندين إلى ذراعى وقد أيقظت حرارتك فى روحى نشوة نائمة ، وخيل إلى أن هذا الطريق الطويل .. هو طريق حياتنا .. وأنا أساعدك على السير فتغلبنى العزة برجولتى ، وأستجيب لدواعى نفسى ، وأنصت إلى

ذلك الايقاعى الروحى ... إلى صوت قلبينا !

ونزلنا من الجهة الثانية ونحن صامتان .. وبدت لنا المدينة كبيت مهجور مخيف تسكنه الأفاعى والوحوش !

أيمكن أن ندخل هذه المدينة ؟ ! إن الناس سيعرفوننا ، وسيقولون هذا رجل لا ضمير له ، فقد ترك زوجته ليعيش حياة مخجلة .. وتلك فتاة لاحياء لها فقد هربت مع رجل متزوج ! .. أما نحن فنصمت أمام تلك الأقوال الجائرة .. لأننا لا نملك القوة على مجابهة المجتمع والحرية فى التعبير عن عواطفنا .. غير أننا يجب أن نصرخ فى وجوه هؤلاء : إن الحياة أرقم من أن تعاش مع الملل ، وأسمى من أن تذبل فى صمت .. الحياة سر مقدس لا يكون فى الأوحال ، ولا يجدر أن ترهق تحت أعباء من أوضارنا ..

أنا رجل شقى يعرش حياتى الملل ، ويستبد بى ضجر عميق . إن عينى ترى دائما أشباح السآمة ، وطيوف الضيق المهيمن على روحى ... فماذا لو حاولت أن أمسح عن روحى الملل ، وأنقذ حياتى من دنيا الطيوف والأشباح ؟! .. ماذا لو هربت بذلك السر المقدس إلى ملكوت من الصفاء والحرية ؟! ماذا لو صرخت فى عنصر الفناء صرخة الجريح المستغيث ؟ !

غير أن الناس جروا على عادة سخيفة كأنهم شعروا بتفاهة أنفسهم فحاولوا أن يقنعوا أنفسهم بأن الحياة تافهة لا تستحق أية تضحية ، ولا تستأهل أى إقدام !

وأخيراً دخلنا المدينة ، فراحت عيون الناس تلتهمنا ، وتصعد فينا ، كمجرمين هربا من السجن ، وعليهما شارته ، وفى سيمائهما بريق الذل ، وفى نظراتهما افتقار النفس إلى عزة !

وقد تحيرنا إلى أين نذهب ؟ .. ونحن لا نملك الوقود الذى نحرقه قربانا للمجتمع ! ..

لقد حاولنا أن نعيش ، وأن نتكىء على العاطفة التى أسرتنا ، وأن نجعل الحب نبراساً يضىء لنا الطريق .. لقد حاولنا أن نعيش فى أجوائنا السامقة دهرا ، وأن ننسى الماضى والناس جميعا ، وأن نتغذى بالعاطفة المضطرمة ، ونسترشد بالاحساس المشترك ، ونقيس الأشياء بمقاييسنا نحن .. تلك المقاييس التى صنعناها من من رحيق نفوسنا .. غير أن الهوة كانت سحيقة ظلت تصرخ فينا : مجرمون . مجرمون !

وحاولت أن تتشبث بأسباب الحب .. غير أن حبل الحب قد رث ولم تبق أمامنا إلا حياة مظلمة .. وإذا الحب عملة زائفة فى سوق المراوغة والخداع !

ونحن - دائما - نركض وراء الحب . ذلك المعبود الوهمى .. حتى يضنينا التعب ، وينال منا الجهد .. حتى إذا ظفرنا به فى النهاية .. رأيناه قائما على منطق أعوج ، وأدركنا أننا ارتكبنا فى سبيله حماقة صارمة .

ولما لم نستطع الحياة مما حين بلغ بنا اليأس مبلغا بعيدا .. تنصلت منى ، وتنصلت منك .. وتركنا الحب كأثر من آثار الجريمة !

ولم نملك حتى كلمات الوداع . فكأننا شعرنا بأن عاطفتنا أصبحت من التفاهة بحيث لا تقيم جملة من جمل الوداع !

وهكذا انفصلنا . ورجعت إلى نفسى أحاسبها بعد رحلتى الطويلة .. وأخذت أستعرض الماضى بكل ما فيه من أشجان وآلام .. ورأيتنى أمام صور اختلطت ألوانها ، وتشابكت خطوطها .. وأصبحت لا تعبر إلا عن الخيبة !

أتذكرين عندما التقينا لأول مرة ؟! .. لقد خيل إلى فى ذلك الحين أننى سأضع حداً لاضطرابى ووافعى المر ، وأبنى حياة أكثر بهجة وانطلاقا .. وهكذا أنا أتمنى كل يوم أن أحيا حياة جديدة . إن عمرى ملىء بالأخطاء حتى لأتمنى دائما أن تكون لى القوة على نسيان الماضى جميعه ، وتغيير مجرى عمرى ! .. فعندما رأيتك حطمت بكل جبروتى ما ضى كله ، ونسيت بما أملك من قسوة واقعى جميعه .. فلم أشعر بالدنس لأننى متزوج ، ولأن لى أولادا .. ولكننى شعرت بالغبطة تطفح على وجهى ، وأنت تتراءين لى أينما قلبت ناظرى .. وكنت أحملك طيفك كأننى أرتشف روح السكينة !

عندما عرفتك انقلب بيتى إلى جحيم ، وصارت امرأتى فى عينى شيطانا مريداً ، وران التذمر على روحى ، وضج الضجر فى كيانى .

إننى عندما أسترجع الماضى يهز نفسى ما تضمنه من خيبة جارحة أورثتنى عدم الثقة فى نفسى ، وزرعت فى بذور السخط الطائش !

كنت أقول دائما إن قلبا من غير حب كهف يرن فى أرجائه فراغ أبله .. ولكن متى ما يعلق الحب فى قلب يصبح كالطائر الجريح يخفق فى جناحيه كأنه ينعم بالغبطة وكأنه لا يعرف أن قواه الخائرة ستهبط به من حالق !

وهكذا أنا .. عندما علق حبك فى قلبى لم أكن أشعر إلا بوجودك .. وطفقت أسعى لكى أدبر شيئا فى سبيل سعادتى ولو على حساب الآخرين ! .. وكنت أنت تشجعنى وتذكرينى بالأسار الذى يطوق عنقى

ومرة رجعت إلى بيتى بعد لقاء معك .. وكانت عندى فكرة ظالمة، فقد نويت أن أصرخ فى وجه زوجتى: إننى لا أحبك بل أمقتك أشد المقت !!

صدقينى لم تكن لى رغبة فى مثل هذه الحياة ، ولا فى مثل هذه الزوجة . لقد كنت أتوق إلى حياة أرفع من هذه الحياة المليئة بالتناقضات .. لقد كنت دائما أحلم بالحوريات ، وأغرق فى نشوة حلمى .. لقد كنت دائما أتصور تصورات زاهية مزهرة .. وأبنى القصور فى خيالى .غير أن حلمى لم يتحقق ، فقد جاء أبى بجبروته يمسخ حلمى ، ويهدم تصوراتى .. فزوجنى بامرأة بلهاء لا أحس نحوها بأية عاطفة !

دخلت بيتى .. العالم الذى أمقته أشد المقت .. لكم هو كريه إلى نفسى ثقيل على قلبى ملىء بالأشباح !!

وكنت أنت يا من تصورتك حورية من حوريات أحلامى تزيدين كراهيتى لبيتى ، وتثيرى منه ، وسخطى عليه .. وكنت أنا الهائم الذى لا يستقر على قرار . أمنيك ، وأبث فى نفسى الحرارة والقوة لكى أهيم حياة أسرتى الآمنة . فى سبيلك أنت يا من تركتنى وحيداً منبوذاً فى نهاية الأمر !

كان دخان الجريمة يملأ صدرى بعد أن عرف الناس حبنا ، وأصبحت حياتى فى البيت لا تطاق !

وجئت زوجتى مرة فرأيت المغدودة تبكى على الحب الذى لم يخلق ، ورأيتها تصرخ معولة :

— طلقنى .. يا ظالم . يا حقود إننى لا أستطيع أن أتحمل كلام الناس !

وفى تلك اللحظة وقف خيالك كالشيطان يدبر لى أمراً .. فقلت تلك الكلمة القاسية وخيل إلى أنها ستصنع لى جناحين لأطير بهما إلى عالمى السامى .. وخيل إلى كذلك أنها الكلمة السحرية التى ستنقلنى إلى دنيا الحرية والأحلام !

وخرجت من البيت إلى غير رجعة .. وهربت من الجحيم إليك !!

وكان لقاؤنا فى عشنا الأول .. على شاطىء النهر .. وقد ابتدرتنى قائلة :

— أهذا أنت ؟!

— نعم ! .. أنا الوحيد الذى قطع كل صلة له بالعالم

وكانت آمالنا كباراً فى أن نحيا حياة جديدة .. ولكننا لم نستطع .. وحاولنا أن ننسى الماضى ومرارته ولكن الماضى ظل يلاحقنا وينغص علينا حياتنا

وبعد رحلة طويلة مضنية فى عالم الأوهام انفصلت عنى ، وانفصلت عنك ، وإذا أنا وحدى أهيم فى عالم غريب عنى .. فقيرا إلى الرحمة والحنان الطاهر فقيراً ، إلى الأمن والطمأنينة الجميلة ، فقيراً إلى الراحة واستقرار الضمير!

ولم تكن لى وجهة اتجه إليها ، مادمت قد قطعت كل صلة لى بالعالم .

يا ويحى ! .. أهذا الحطام يستطيع أن ينهض بى من الهوة التى أردى بها ؟!

يا ويحى ! أتلك الخطيئة تمحوها كفارة من حيرتى وعذابى؟!

وأخيراً . دخلت مدينتى .. واتجهت إلى بيتى الذى هدمته بيدى لأشهد حطام حياتى الماضية ، ورأيت البيت يخيم عليه السكون !

زوجتى .. زوجتى .. شريكة حياتى ، ضحية حبرونى .. أيتها المرأة المحطمة ها هو الجلاد .. جاء إليك . ولكن من غير سيف .. فقد حطمت الحياة سيفه ... لقد جئت إليك أحاول بناء حياتى من جديد .. إنظرى .. إنظرى ..

ولكننى لم أسمع جواباً . لأن زوجتى تركت بيتها !!

فتسللت من الباب كاللص بعدأن زودت ناظرى بمناظر المأساة وجئت إلى الشاطىء .. لا لأننى أحبه .. ولا لأننى مشتاق إليه .. ولكننى لا أملك ملجأ غيره

وها أنذا جالسا وحدى والدجى يرسم أمام ناظرى عالماً رهيباً

(القاهرة) غائب طعمة فرمان